أشهر الثورات السياسية في تاريخ الأزهر

د. سيد نوفل

تتحد العبادة والحضارة في الدعوة الإسلامية، ويتصل الدين بالدولة أوثق الاتصال، بل إن استقامة السلوك البشري والسياسة الإنسانية من أهداف العبادة ومقوماتها الأساسية.

فالنظام الروحي في الإسلام هو قاعدة المبادئ الخلقية، وإذ كان المسجد أو الجامع هو المعهد الإسلامي الأول، فقد كان يضم العبادة والسياسة، وكانت المساجد لعهد الرسالة والخلافة والصالحين من بعد هي منازل العبادة والحكم معًا، تؤدى فيها الصلاة وتتقرر السياسة، وتوجه منها الغزوات، وإذ كان العلم هو قاعدة الدين والدنيا معًا في حكم الإسلام، فقد كان لزامًا أن يأوى إلى المساجد أو المعاهد الإسلامية الجامعة. وقد ظهر ذلك على أئمه في مساجد البصرة والكوفة وغيرهما في فجر الإسلام.

ومن هنا كان تأسيس الجامع الأزهر دينيًا سياسيًا علميًا، وكان تأثيره ودوره في شؤون الدين والدنيا واسع المدى منذ نشأته لأكثر من ألف عام خلت، وفي مختلف الحقب التاريخية التي مرت به.

لقد أنشأه الفاطميون إثر اتخاذهم مصر قاعدة لملكهم، وسموه الجامع الأزهر، نسبة إلى فاطمة الزهراء التي ينتمون إليها، وعينوا فيه نحو أربعين من علماء الشيعة، ينشرون في الناس مذهبهم الديني، ويدعون لسياستهم،

ويبشرون بحكمهم. ولهذا كان طبيعيًا أن يسعى الأيوبيون لتغيير الصبغة الفاطمية في الأزهر، وأن يتنكروا له مئة عام حتى يتم لهم هذا التغيير ويمارس الأزهر دوره السياسي من جديد على وجه يرضون عنه. لكن زاد من شأن دوره العلمي قضاء المغول على مدارس العلم في المشرق العربي، واندثار الوجود الإسلامي الزاهر في الأندلس.

وكان صنيع العثمانيين مع الأزهر أشبه ما يكون بصنيع الأيوبيين أو أقسى منه، وإن حاول قادتهم التزلف إلى علمائه وطلابه والظفر بتأييدهم، ويدل على طبيعة الأزهر السياسية أنه كان ينتخب لرياسته ناظر أو وزير من بين كبار رجال الدولة، وأن الرئيس العلمي أو الشيخ لم يعرف إلا في العهد العثماني.

ودور الأزهر الديني والسياسي لم يتهيأ لأى من الجامعات الإسلامية أو غيرها. ويشير المستشرق ك. فولرز إلى بعض أسباب هذه المكانة المرموقة، فيذكر: (وقوع الأزهر في مكان يتوسط العالم الإسلامي، وقربه من الحجاز، وأهمية مصر الاقتصادية وصبغتها العربية، وامتداد القارة الأفريقية فيما يلي مصر). ومهما يكن من أمر، فإن دور الأزهر بارز في جميع الأحداث والثورات السياسية التي تعاقبت على وطننا منذ نشأته، ودوره في العالم الإسلامي يمثل دور مصر البارز لمختلف العصور الإسلامية، ومنذ الثورة الإسلامية الأولى لعهد عثمان بن عفان. وقد احتل شيوخه في التاريخ مكانة لا تقل – إن لم تفق – مكانة الكثيرين من الملوك والولاة، فسجلت عهودهم وسماتها.

وقد أرخ الجبرتي لشيوخ الأزهر في اتصال وتعاقب امتد مئتي عام.

وكان شرط القيادة والإدارة من الشروط الأساسية في شيخ الأزهر الصالح، فحين ولي الشيخ إبراهيم بن مُحَمَّد الباجوري المشيخة منذ قرن مضى، لم يستطع لضعف إرادته النهوض بأعباء المشيخة رغم عظمته العلمية، وحين ظهر ضعفه ووهنه، عين في عام ١٢٧١هـ مجلس من أربعة وكلاء للنهوض بأعباء المنصب الكبير.

ويظهر الأثر السياسي لشيخ الأزهر حتى في عهد طغاة المماليك. ويروي صاحب عجائب الآثار أن الطاغية إبراهيم بك ذهب إلى الشيخ العروسي متذللًا متصاغرًا باكيًا، طالبًا أن يؤيده ضد ثورة الشعب على حكمه. كما يروي المؤرخون أنه في عام ١٧٩٥م استبد الوالي بأهل بلبيس في تحصيل الضرائب، فلجؤوا إلى الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر ليحميهم. ونصح الشيخ الحاكمين: مراد بك وإبراهيم بك، ولكنهما لم يستمعا لنصحه. وحينئذ قاد الشيخ ثورة شملت أهل القاهرة وضواحيها، وتجمع الناس ثلاثة أيام مصرين على سيادة الحق والعدل، أو الجهاد والفداء في سبيلهما. ولم يكن بد للطاغيتين من الرضوخ، وتحرير عهد يوقعانه بالتزام الجباة السيرة الحسنة، والكف عن مد أيديهم إلى أموال الناس بغير حق.

لكن الدور الأزهري لم يكن من صنع شيخ الأزهر وحده، بل من صنع الأزهر كله: شيخه وعلمائه وطلابه جميعًا، ومن صنع الرأي العام الوطني الذي يقرره الأزهر. وإذا ألم بشيخ الأزهر أو بكبار العلماء ضعف عن مسايرة الآمال الوطنية، أو اعترى همتهم فتور، تصدى لهم جمهرة العلماء والطلاب، وأعرضوا عنهم، وتخلوا عن قيادتهم، بل أوقعوا بهم الأذى، ومضوا في سبيل الثورة الوطنية ما استطاعوا إلى تأدية واجب

النضال الوطني للحرية سبيلًا.

والأمثال على ذلك كثيرة ومنها ما حدث في ثورة مارس (آذار) لعام ١٨٠٠ ضد الفرنسيين، فقد طالت مدتها، وتكبد فيها الفرنسيون من الخسائر ما لا يقل عن خسائر الوطنيين.

وحينئذ لجأ الفرنسيون إلى المصانعة، فاتصلوا بالشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر، وجماعة من زملائه هم المشايخ المهدي والفيومي والسرساوي. واتصل الشرقاوي وزملاؤه بالفرنسيين، وعادوا إلى الثائرين يحملون طلب الفرنسيين بإيقاف الحرب، والعفو عن جميع القائمين بالثورة، وإباحة الخروج والبقاء لمن شاء منهم.

ولم يكد الثوار يسمعون هذه الشروط التي تبعهدهم عن هدفهم في التخلص من احتلال الفرنسيين وإجلائهم عن أرض الوطن المقدسة، حتى استنكروا صنيع الشيخ وزملائه، ولقنوه وزملاءه درسًا لا ينسى، (فضربوهم، ورموا عمائمهم إلى الأرض، واسمعوهم قبيح الكلام)، كما تقول الرواية التاريخية المأثورة.

وقد امتد هذا التأثير إلى عهد قريب، ظهر في وقفة الشيخ مصطفى المراغي ضد دخول مصر الحرب العالمية الثانية في خريف عام ١٩٣٩، ضنًا بمساندة من ساموها سوء العذاب وتنكروا لحقوقها ولسائر الحقوق العربية. وسارت في الشعب المصري العربي، بل في الأمة العربية كلها، قولته المأثورة: "كيف ندخل حربًا لا ناقة لنا فيها ولا جمل؟!"، وكان لوقفته أثرها في حركة على ماهر منذ نهاية ١٩٣٩ لتجنيب مصر ويلات الحرب، ثم في حركة رشيد علي الكيلاني العراقية صدى للحركة المصرية ومن بعدها

بعامين. وكانت مداخلات الشيخ المراغي ذات أثر في شؤون الحكم وتأليف الوزارات في نهاية العشرينات، وفي الثلاثينات لهذا القرن. وإذا كان حديث الثورات السياسية في تاريخ الأزهر يطول، فإننا نكتفي بالإشارة إلى أشهرها وأقربها.

ثورة أكتوبر ١٧٩٨ على الاحتلال الفرنسي:

في يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى لعام ١٢١٣هـ الموافق ٣١ من أكتوبر لعام ١٧٩٨ ميلادية، وبعد ثلاثة أشهر من الاحتلال الفرنسي بقيادة نابليون لمصر، شبت ثورة القاهرة الأولى. وذكرت أسباب كثيرة لهذه الثورة، فقيل إنها الكساد وسوء الأحوال، واتفق الجبرتي ونابليون في رد أسبابها إلى الأوامر الإدارية الفرنسية التي أرهقت الشعب، وسنت القروض والبيوع الإجبارية، والاستيلاء قسرًا، والغرامات ورسوم التسجيل، وما إليها من ألوان الاستنزاف والعنت.

ويضيف إلى ذلك المعلم (نقولا الترك) اللبنانى، مراقب الحملة ومسجل أحداثها، في كتابه (ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية)، فيذكر المعلم نقولا أن الطبائع المصرية نفرت من إيلاف الاحتلال الفرنسي رغم التودد والتحبب من المحتلين إلى الوطنيين، وأن الاستهتار والدعارة الفرنسيين ضايقا المصريين أشد المضايقة، فضلًا عن (الخمامير التي اشتهرت في كامل أسواق المدينة جهارًا، حتى وفي بعض الجوامع أيضًا)، مما جعل المصريين يؤثرون الموت على الحياة، مع أن طبقة الأسافل والأراذل كسبت كثيرًا من الانحلال الشائع. ومهما يكن من

سبب، فقد كانت الثورة المصرية على الاحتلال الفرنسي ثورة شعبية عامة بشهادة المؤرخين الفرنسيين وغيرهم. وقد بلغت شعبيتها حد أنها فاجأت المحتلين وأذهلتهم رغم عموم دعوتها قبل وقوعها، وسيرورة الجهر بندائها في كل مكان.

وفي ذلك يقول ج. كريستوفر هيرولد في كتابه (نابليون في مصر): "وأغرب ما في الثورة المصرية، التي نشبت في ٢١ من أكتوبر، أنها أخذت الفرنسيين على غرة، مع أن اقترابها كان ينادى به على الملأ من فوق سطوح المنازل وأعلى المآذن".

ويضيف (هيرولد) أن أعضاء الديوان الذي أقامه نابليون كانوا على علم تام بمقدمات هذه الثورات والإعداد لها، وأنهم مع لقائهم المتصل لنابليون وأعوانه لم يفضلوا إلى الفرنسيين بشيء. ثم يظهر أن نابليون كان يدرك النقمة المصرية، ولهذا حاول امتصاصها بإعلان رغبته في اعتناق الإسلام.

ويقول (المركيز دى لاجونكيير) الضابط الفرنسي، في الجزء الثالث من موسوعته عن حملة نابليون إلى مصر: "كانت الدعوة إلى الثورة تختلط جهرًا بأذان المؤذنين، فكانوا يدعون إلى الله وإلى الثورة صباح مساء. فبلغت عوامل الإثارة أقصى المدى، حتى كانت حادثة واحدة تكفي لإضرام بركان الثورة القومية. وكان فرض ضرائب المنازل سببًا كافيًا في إثارة نفوس الذين لم تستثرهم الدعوة الدينية".

ومن هذا يظهر أن أسباب الثورة كانت أعم من هذه الخصوصيات التي حاول بعض المؤرخين إرجاعها إليها.

ولقد كانت هذه الثورة أزهرية القيادة، وكان الجامع الأزهر مقر قيادتها العامة، إذا ساغ هذا التعبير عن أحداث مر عليها مئة وثلاثة وسبعون عامًا.

وقد أخذ علماء الأزهر يبثون الدعوة إلى الثورة بواسطة شيوخ المساجد يحثون عليها في عظاتهم وخطبهم، وبواسطة المؤذنين يدعون إليها خمس مرات في اليوم مع كل صلاة. فكان الأزهريون هم قادة الثورة ودعاة الوطنية والفداء. وفي ذلك يقول هيرولد: "أما العناصر المجاهدة حقًا، فهم الغلاة في الدين كالأئمة وطلاب الأزهر".

ويجمع الجبرتي ونقولا الترك والمؤرخون على أن الذي تزعم الثورة يوم نشوبها عالم أزهري شاب هو الشيخ بدر المقدسي، فقد نزل إلى الشارع، وخطب في جمع غفير من الناس، داعيًا كل مؤمن بالله أن يذهب إلى الجامع الأزهر: "لأن اليوم يوم غزو المؤمنين للكافرين".

ومن بعد ذلك قاد جماعة إلى منزل القاضي التركي إبراهيم أدهم أفندي، وكان وقورًا محترمًا، وطلبوا منه أن يذهب معهم إلى مقر نابليون بونابرت للاحتجاج على المظالم الفرنسية. ولم يكد يتخطى عتبة داره حتى رأى الثائرين في زحف وتكاثر وهياج، فأدرك خطورة الأمر، وانكفأ راجعًا إلى بيته. ولكن الجماهير أصرت على مصاحبته للمسيرة. وحين تشبث بتخاذله، سقط ما كان له من الاحترام في نفوس الناس، فانهالت الجماهير عليه وعلى رجاله ضربًا بالعصى ورجمًا بالأحجار.

وشكلت لجنة لقيادة الثورة، وانتخبت الشيخ السادات من نقباء الأشراف رئيسًا لها، واتخذت في الأزهر مقرها، ونظمت كتائب المتطوعين

وزودتهم بالسلاح والطعام، واندمج شيوخ الأزهر في الصناع والتجار والعمال وسائر الطوائف بدعوتهم إلى الجهاد في سبيل الله والوطن.

وتكاثر المعممون – كما يقول الجبرتي – يخطبون الجماهير، ويشعلون نار الحماسة في قلوبهم، وتطايرت أنباء الثورة في سرعة مذهلة، وأقبل الفلاحون وأهل الضواحي إلى القاهرة، وظهرت الأسلحة والرماح والأسهم في الأيدي، مع الحجارة والعصي والفؤوس وما إليها، وتجمع في الأزهر عدد قدر بأربعين ألفًا من الثائرين. وبلغت أنباء التجمهر في الأزهر وخان الخليلي وما حولهما إلى الجنرال (ديبوي) حاكم القاهرة من قبل بونابرت، فركب الخيل مع عدد من مساعديه حتى صادفته المتاريس التي أقامها الثوار على أبواب خان الخليلي والنحاسين.

وهنا برز له أحد الثائرين وطعنه برمح فأرداه قتيلًا، كما أجهز الثوار على مساعديه. وكان بونابرت قد غادر القاهرة في رحلة تفتيشية إلى مصر القديمة والروضة، وحين بلغه مصرع (ديبوي) أسرع بالعودة إلى مقره، وعين (بون) محل (ديبوي)، واتخذ على الفور أشد الإجراءات للقضاء على الثورة وتدمير الأزهر معقلها.

ويقول هيرولد: "أما بونابرت، فقد ثار غضبه وهو في مقر قيادته بقصر الألفي، وأمر مدفعية القلعة المعززة بمدافع الهارتزر والمورتار بأن تسدد المدافع إلى الجامع الأزهر، وما حوله من إحياء هي مركز الثورة.

وبدأ ضرب الأزهر بالقنابل عند الظهر واستمر حتى المساء، وأصدر بونابرت أمره إلى الجنرال (بون) بأن يقضي على كل من في الجامع الأزهر". وأخذت القنابل تضرب الأزهر وما حوله حتى تصدعت الجدران وانهارت

الأبنية، وسقط الألوف قتلى تحت الأنقاض، وجرى الدم في الشوارع من الوطنيين والاستعماريين.

وقدرت المصادر الفرنسية عدد القتلى من الفرنسيين بخمسمئة، وعددهم من المصريين بنحو ثلاثة آلاف، ثم اقتحم الفرنسيون الجامع الأزهر بخيولهم، ونهبوا نفائسه وكتبه، ودنسوا طهارته، وانتهكوا حرماته، وأقاموا فيه مركزًا لهم. كما أسر الفرنسيون زعماء الثورة من علماء الأزهر، وأعدموهم في القلعة دون محاكمة، وألقوا بجثثهم خلف الأسوار، ثم قذفوا بها في النيل. ولم يترك نابليون أسلوبًا للوحشية لم يستخدمه في التنكيل بالثوار والتمثيل بجثثهم، ولكنه مع ذلك لم يستطع إخماد الثورة إلا بعد أن أحضر طائفة من علماء الأزهر الذين لم يشتركوا فيها لأسباب شتى، وأعلن لهم العفو عما اقترفوه كما قال، واستكتبهم منشورًا يطلب إلى الناس الهدوء، ويزف لهم بشرى الصفح المزعوم، والأمر بإخراج الجنود الفرنسيين من الأزهر، وإعادة نفائسه وكتبه إليه. وفي ذلك يقول (هيرولد): "وهكذا نجد الجهر بالعفو عن الأبرياء، وإعدام الثائرين في الخفاء وتحت جنح الظلام، وهي سياسة خليقة بأن تنال رضاء مكيافيللي!".

وهذه الثورة الأزهرية تخطيطًا وقيادة، من أخلد الثورات المصرية على الزمان. فقد كانت بتجربتها القاسية، وخسائرها الفادحة وتضحياتها الغالية سببًا في اضطراب مقام الفرنسيين بها، ونشوب ثورات في جميع الأقاليم ضدهم، كما كانت أعظم دافع لمصر في ثورتها الثانية.

ثورة مارس لعام ١٨٠٠:

كانت ثورة مصر الأولى، وما أثبتته للغزاة الفرنسيين من تعذر استقرارهم في مصر وتحقيق أحلامهم في السيطرة الدولية عليها، وما تبعها من هزيمة لنابليون في عكا من الأسباب التي دعت نابليون إلى العودة خفية إلى فرنسا في السابع عشر من أغسطس عام ١٧٩٩، مخلفًا قيادة جيش الاحتلال في مصر لـ(كليبر)، كما شجعت العثمانيين على غزو الفرنسيين في مصر اعتمادًا على انضمام المصريين إليهم، لكن الغزو العثماني وما صحبه من تدبير بريطاني، دفع (كليبر) إلى محاربة الجيش التركي المصري، والانتصار عليه في معركة (المطرية) الطاحنة في ٢٣ من شوال لعام ١٢١٤هـ، الموافق ٢٠ من مارس لعام ١٨٠٠.

وعاد (كليبر) مزهوًا بانتصاره إلى القاهرة، لكن الثورة الثانية قابلته في ذات الوقت، فقد عز على أهلها هزيمة جندهم وجند إخوانهم الترك المسلمين، وضياع فرصة التخلص من الاحتلال الفرنسي. وكان أبرز رجال هذه الثورة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ومن رجال الأزهر الإعلام، وقد اعتمد فيها على تأييد شيخ الأزهر، وعلمائه وطلابه الذين انبثوا في الأحياء المختلفة وأشعلوا الثورة فيها جميعًا، مستفيدين من تجربة الثورة الأولى في حي الأزهر وحده. وقد دامت سبعة وثلاثين يومًا تخللتها هدنة، وخرج منها الثائرين بشروط مشرفة تضمنت العفو عنهم.

وامتازت هذه الثورة بأعلام كثيرة مشرقة أهمها:

أولًا/ الوحدة الوطنية: فقد التقى فيها الأمراء السابقون والفلاحون، والعلماء والعامة، والأغنياء والفقراء.

ثانيًا/ الشمول: فقد بدأت في حي بولاق، ثم اشتعلت بها أحياء الحسينية وباب الحديد وبركة الرطل وسائر أحياء القاهرة، مما كلف جيش الاحتلال الكثير من الضحايا والخسائر.

ثالثًا/ الاستعداد: فقد عملوا على الاستفادة من أساليب الحرب الحديثة حينئذاك، وأنشئوا بجهودهم الذاتية ووسائلهم المتاحة معملًا للبارود في الخرنفش، وجمعوا مختلف الصناع لصنع الذخيرة وأخرجوا المدافع والأسلحة القديمة من المخابئ والمخازن وأصلحوها واستخدموها، وجمعوا الحديد من كل مكان حتى من المساجد ذاتها، مؤمنين بأن الإسلام عمل ونضال، وأن أعلى درجات الإيمان هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته: كلمة الحرية والعدل والسلام.

رابعًا/ التنظيم: فقد قسموا القاهرة إلى مناطق عسكرية، عينوا لكل منها قائدًا من أعلام الثوار، ونسقوا العمل.

وكان من العسير على جيش الاحتلال أن يثبت في المعركة لولا ما اخترعته البعثة العلمية الفرنسية من وسائل الحرب الأشد حداثة، والتي أطنب الجبرتي في وصف هولها وفي فظاعة استخدامها بعد ثلاثة أسابيع من بدء المعركة. ومع ذلك فقد استطاع الثوار مقاومتها لمدة أسبوعين، ثم نزل الجيش المحتل على شروطهم للمصالحة التي لم يجدوا منها بدًا. لكن هذه الثورة، وما أعقبها من مصرع (كليبر) بيد سليمان الحلبي، وما صاحبها من تطورات دولية، مهدت لتصفية الاحتلال الفرنسي في مصر بعد ثلاث سنوات من مقامه الدامي فيها، وبها كتبت مصر، في تاريخ النضال البشري للحرية، صفحة من أروع الصفحات الوطنية.

ثورة مايو عام ١٨٠٥:

ومن الثورات الأزهرية التاريخية، ثورة مايو (أيار) لعام ١٨٠٥، فقد تمرس المصريون بأعمال النضال الوطني وأعبائه ومسؤولياته ثلاث سنوات أثناء الاحتلال الفرنسي، ثم داقوا طعم الحرية والنصر بعد جلاء الجنود المستعمرين عن وطنهم، وقد تبينوا قوتهم، وعجز العثمانيين واحتماءهم بالبريطانيين المستعمرين لتحقيق الأهداف المشتركة. وكان من دوافع الأسى والنقمة على إخوان الإسلام أن العثمانيين بعثوا خسرو باشا (الطاغية المستهتر الأخرق) حاكمًا لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها، وأن طغيانه وما صحبه من صراع بين المماليك والترك من ناحية، وبين زعماء كلا الفريقين من ناحية أخرى، حملت المصريين أشد ألوان العنت حتى ضاقت نفوسهم عن جميع منازع الصبر عليها. وكان مُحَمَّد علي قائد الجنود الأرناؤود الألبانيين يشارك المصريين النقمة على الحكم العثماني والحاكم الأخرق خسرو باشا.

وكان الإعداد لثورة مصرية وطنية بقيادة شيوخ الأزهر للخروج على الوالي التركي؛ ولتنصيب مُحَمَّد علي واليًا، وسجلت الحركة الوطنية المصرية نصرًا مؤزرًا، ففي يوم الأحد ١٢ من مايو عام ١٨٠٥، احتشدت جموع الشعب من علماء الأزهر وطلابه والتجار والفلاحين والعمال، بجوار الأزهر يتزعمهم الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر والسيد عمر مكرم نقيب الإشراف. وتعالى لأول مرة هتاف الجماهير المصرية العربية بالانفكاك العربي من الرباط العثماني في هذه العبارة البسيطة التقية: "يارب يا متجلي، أهلك طائفة العثمانلي".

وعقد مؤتمر شعبي بجوار الأزهر تقرر فيه مطالبة الوالي التركي بإخراج الجنود من القاهرة إلى الجيزة، وألا يدخل جندي القاهرة بسلاحه، وعدم فرض الضرائب إلا بموافقة علماء الأزهر والأعيان، وإعادة المواصلات المقطوعة بين القاهرة والصعيد.

وتلكأ الوالي، وواصل الثائرون اجتماعهم في اليوم التالي، وسارت جموعهم المقدرة بعشارت الألوف والممثلة لطوائف الشعب، في يوم ١٣ من مايو (أيار) عام ١٨٠٥، إلى منزل مُحَمَّد علي باشا. وقدم إليه شيخ الأزهر الشرقاوي ونقيب الإشراف عمر مكرم شروطًا للولاية، خلاصتها الحكم بالعدل وفق الشريعة الإسلامية السمحاء، وعدم إبرام الأمور بمشورة زعماء الشعب، وعزله عند المخالفة للآراء الشعبية. ووافق الوالي، وانتصرت إرادة الحرية، وإن قدر لمعاركها أن تتصل من بعد دفاعًا عن كيانها، وعن عهودها المنقوضة.

ثورة مارس عام ١٩١٩:

وكانت ثورة ١٩١٩ قمة الثورات الوطنية المصرية، وبداية الحركة الاستقلالية الفعالة، وقد تمت بإرادة شعبية إجماعية، اشتركت فيها المدن والقرى جميعًا، وشملت الشعب كافة. وكانت أوامر سلطة الاحتلال البريطاني تتناول جميع المدن والقرى دفعة واحدة، مقاومة للحركة الشاملة الواحدة.

لكن دور الأزهر مع ذلك بارز فيها أعظم البروز، وظاهر أتم الظهور، فزعيمها الأول سعد زغلول من علماء الأزهر الذين تعلموا وتخرجوا فيه، وزادت استنارتهم بما أضافوا إلى ثقافتهم الوطنية من ثقافة أجنبية، والأزهر

كان الملتقى الدائم للثوار من المسلمين والمسيحيين على سواء، يدعمون الوحدة الوطنية النضالية، ويعملون لتنفيذ خطط الثورة في جميع الأقاليم المصرية.

والذين يطالعون يوميات الثورة المصرية كما كتبها المصريون والبريطانيون يتبينون الدور الفعال الذي نهض به الأزهر في ثورة ١٩١٩. وقد ظهر الدور الأزهري القيادي منذ اليوم الأول للثورة: يوم ٩ من مارس (آذار) لعام ١٩١٩. لقد نفى في ذلك اليوم سعد زغلول ومُحَمَّد محمود وإسماعيل صدقي وحمد الباسل إلى مالطا، على أثر مطالبة الوفد المصري بإنهاء الحماية البريطانية والاعتراف باستقلال مصر وسيادتها.

وتقول اليوميات المصرية أن طلبة الأزهر كانوا في مقدمة الطلاب المصريين في اليوم الأول والثاني للثورة، مع طلبة المدارس العليا وبعض المدارس الثانوية. وفي يوم ١٢ من مارس كان أول تعرض مسلح من الجنود البريطانيين لطلبة الأزهر، وكان أول الشهداء من طلبة الأزهر. وفي يوم ١٣ من مارس ظهر الأزهريون في قيادة مظاهرة المسجد الحسيني بعد صلاة الجمعة، التي أطلقت (المدرعات البريطانية) عليها النار وقتلت منهم ١٢ شخصًا.

وكان العلماء وطلبة الأزهر في مطلع المظاهرة الكبرى في ١٧ من مارس. وكان علماء الأزهر في مقدمة العناصر التي يستشيرها الوفد في خطواته، مثلما حدث قبل تقديم تقرير الوفد إلى المارشال (اللنبي) في ٢٦ من مارس، إذ استشار فيه علماء الأزهر وبطريرك الأقباط وبعض الوزراء والنواب.

وفي أول أبريل "اشتدت ثورة الأزهر وكثرت اجتماعاته، حتى لجأت السلطة العسكرية إلى مخاطبة شيخ الأزهر في أغلاقه دفعة واحدة، أو الاكتفاء بإغلاقه في غير أوقات الصلاة فأبى".

وتؤكد الوثائق البريطانية الدور الأزهري، ففي التقارير اليومية لرجال بريطانيا في مصر شواهد كثيرة، نكتفي بإيراد بعض ما تضمنته تقارير سير (م. تشيتام) إلى لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية. ففي تقريره عن يوم ١١ من مارس قال: "انتشرت الثورة في أماكن عديدة من القاهرة، ففي ساعة مبكرة من صباح اليوم تجمع الثائرون، ومعظمهم من طلبة الأزهر، وبعض الأفراد في الأماكن الرئيسية بقلب المدينة، وزحفوا نحو ورش السكك الحديدية لإخراج العاملين فيها".

وفي يوم ١٣ من مارس يتحدث عن أفراد التنظيم في حركة الثورة، وتعذر التغلب على منطقة الأزهر، قائلًا: "إن الاضطرابات في هذه المنطقة يصعب التغلب عليها؛ بسبب الرغبة في منع الجنود البريطانيين من الاقتراب من الجامع الأزهر".

وفي يوم ١٧ من مارس يقول: "سارت مظاهرة في القاهرة ضمت نحو ١٠ آلاف شخص بقيادة طلبة الأزهر". وفي يوم ٢٠ من مارس يتحدث عن تعاون زعماء الأزهر مع البطريركية القبطية بطريقة فعالة وحرص الأزهريين على كفالة هذا التعاون.

وهكذا كان دور علماء الأزهر الوطنيين المستنيرين في بداية القرن العشرين مواجهة للاحتلال البريطاني، هو دورهم في نهاية القرن الثامن عشر مواجهة للاحتلال الفرنسي. وهو دور لم يستطع إخفاءه مؤرخو

الحملة الفرنسية من الفرنسيين ومؤرخو الثورة المصرية من البريطانيين. وهو دور يتفق مع قواعد الدين الإسلامي ومبادئه: قواعد العمل والنضال والفداء وضرب أحسن الأسوة وخير المثل، ومبادئ الحرية والعدل والسلام، والعمل الجاد المخلص لسيادة سلطانها وإعلاء كلمتها.